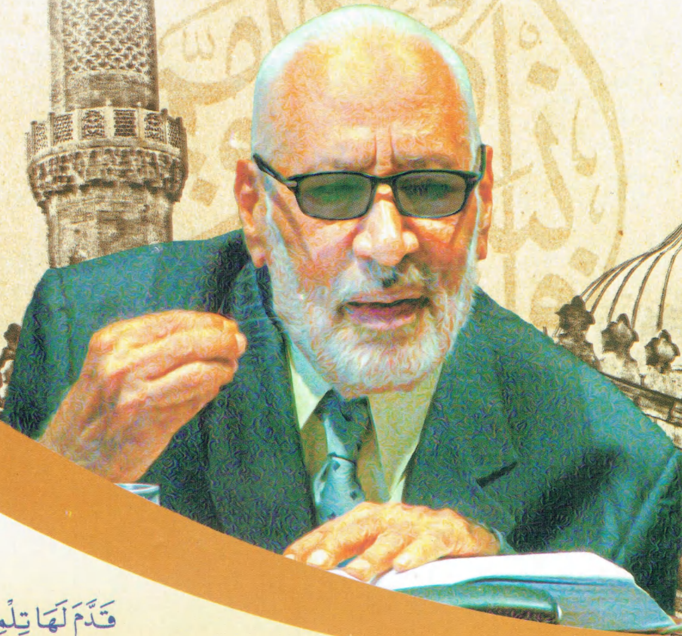
شيخ البلاغيين

محمد أبو موسى

بحوث مهداة لفضيلته بمناسبة تجاوزه الثمانين



قدم لها تلميذه

الدكتور

إبراهيم صلاح الهدهد

الأستاذ بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر - القاهرة

ورئيس جامعة الأزهر سابقاً

وعضو مجمع البحوث الإسلامية



مكتبة وهبة

اسْتِدْعَاءُ زَمَانِ الانْتِمَاءِ
قِرَاءَةٌ فِي إِسْهَامِ اللُّغَةِ فِي تَأْسِيسِ المُنْجَزِ العِلْمِيِّ
لِلدُّكْتُورِ مُحَمَّدٍ أَبُو مُوسَى
دِرَاسَةٌ اسْتِقْرَائِيَّةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ

الأستاذ الدكتور
خَالِدُ فَهْمِي
كلية الآداب ـ جامعة المنوفية

مدخل : محمد أبوموسى ؛ وارث مدرسة البيان : مقالة في حدود المنجز ، وجغرافية المعرفية .

يعد الدكتور محمد أبوموسى (و١٩٣٧م) واحدًا من أكابر وارثي مدرسة البيان المعاصرة في النثر العربي من طريق محمود شاكر ـ رحمه الله ـ الموصول بطريق مصطفى صادق الرافعي ـ رحمه الله تعالى .

وأَظْهُر خصائصها الانتماء الإيجابي لهداية الأمة ، ولسان الوحي المخاطبة به ، وقيمه ، وروحه ، وما أنجز حوله من العلوم والمعارف ، وما خلفه وراءه من تراث ممتد عريق يتجاوز حدود المكتوبات إلى الأعراف والتقاليد والأنظمة وطرائق التفكير والعمران!

وفي هذا المدخل نكشف عن أمرين لازمين لهذه الدراسة ، هما :

١/١ حدود المنجز المعرفي للدكتور محمد أبوموسى .

٢/١ جغرافية المنجز المعرفي للدكتور محمد أبوموسى (أو انتماءاته المعرفية)

وفيما يلي ذانيك المطلبين :

١/١ حدود المنجز المعرفي للدكتور محمد أبوموسى :

أنجز الدكتور محمد أبوموسى عددًا جيدًا من المؤلفات ، ويمكن بيانها فيما يلي ، مرتبة ترتيبًا تاريخيًّا حسب صدور كل كتاب أول مرة :

أ- ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م : من أسرار التعبير القرآني : دراسة تحليلية لسورة الأحزاب .

ب - يناير ١٩٧٤م : خصائص التراكيب : دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني .

جـ - جمادى الأولى ١٣٩٦هـ - مايو ١٩٧٦م : التصوير البياني : دراسة تحليلية لمسائل البيان .

د - يناير ١٩٨٧م : قراءة في الأدب القديم .

هـ - ربيع الأول ١٣٩٨هـ - فبراير ١٩٧٨م : دلالات التراكيب : دراسة بلاغية .

و - ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م : القوس العذراء وقراءة التراث .

ز - ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م : الإعجاز البلاغي : دراسة تحليلية لتراث أهل العلم .

ح - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م (ط٢) : البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، وأثرها في الدراسات البلاغية .

ط - ١٤١١هـ - ١٩٩٨م : دراسة في البلاغة والشعر .

ي - ١٤١١هـ - ١٩٩٨م : مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني .

ك - ١٤١٨هـ - ٢٠٠١م : شرح أحاديث من صحيح البخاري : دراسة في سمت الكلام الأول .

ل - ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م : مراجعات في أصول الدرس البلاغي .

م - ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م : تقريب منهاج البلغاء لحازم القرطاجني ، المتوفى سنة ٦٨٤هـ .

ن - ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م : الشعر الجاهلي : دراسة في منازع الشعراء .

س ـ ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م : آل حم ؛ غافر ـ فصلت : دراسة في أسرار البيان .

ع ـ ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م : الزمر ـ محمد : وعلاقتهما بآل حم : دراسة في أسرار البيان .

ف ـ ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م : شرح أحاديث من صحيح مسلم : دراسة في سمت الكلام الأول .

هذا بالإضافة إلى بعض الدراسات التي عُني فيها باستخلاص منهج خدمة العلم في تراث الأمة ، ونشرت هي وغيرها في عدد من الدوريات العلمية المرموقة .

٢/١ جغرافية منجز الدكتور محمد أبوموسى المعرفية : (انتماءات كتبه معرفيًّا) :

يكشف فحص منجز الدكتور محمد أبوموسى عن توزُّعه على مجموعة من الانتماءات المعرفية ، وهو الكشف الذي اعتمد تحليل خطاب ثلاثة محددات أساسية في هذا المنجز ، وهي :

أولاً : تحليل خطاب عنوانات المؤلفات في هذا المنجز ، بما هي عتبات نصية مركزية كاشفة عن المحتويات والمضامين .

ثانيًا : تحليل خطاب مقدمات المؤلفات ، وبخاصة إذا عرفنا أن مقدمات مؤلفات الدكتور محمد أبوموسى اتسمت بحضورها المائز في كل طبعة من جانب، وبطولها وعمقها واتصالها العضوي بمحتويات الكتاب من جانب آخر .

ثالثًا : تحليل مادة كتاب ، ومحتوياته .

ومن هذه جميعًا أمكن الكشف عن الانتماءات المعرفية التي خدمتها المؤلفات في هذا المنجز ، وهو ما يمكن رصده فيما يلي :

١/٢/١ حقل البلاغة العربية :

يعد حقل البلاغة العربية هو الحقل المركزي الذي حكم مسارات منجز الدكتور محمد أبوموسى ، إن بشكل تنظيري تحليلي ، وإن بشكل تطبيقي تحليلي .

وقد ظهرت المفردة المركزية التأسيسية الداعمة لما نقرره وهي (البلاغة) بصورة صريحة في عنوانات خمسة مؤلفات هي (هـ ، ز ، ح ، ط ، ل) .

وتنوعت خدمته لهذا الحقل ، واتخذت أشكالاً متعددة ، كما يلي :

أولاً : التنظير التحليلي ، والكشف عن قواعد العلم ، كما نلحظ في المؤلفات : (ب ؛ ج ؛ هـ) .

ثانيًا : الدراسة الفكرية والمنهجية لقضايا العلم ، وأصوله ، كما هو ظاهر في المؤلَّفَيْن (ز ؛ ل) .

ثالثًا : الدراسة التأسيسية التي تستهدف العناية بالمصادر المركزية في العلم ، كما في المؤلفات (ح ؛ ي ؛ م) .

رابعا : التطبيق التحليلي لنصوص مركزية في اللغة العربية ، توزع على اختيارات من سور الكتاب العزيز ، والسنة النبوية الشريفة في الصحيحين ، وعيون الشعر العربي القديم ، كما نرى في (أ ، س ، ع / ك ، ف/ د ، ن) على الترتيب .

ومن كل ذلك يتضح أن الوزن النسبي لبحث هذا الحقل يحتل المرتبة الأولى في قياس أوزان المجالات المعرفية جميعًا ، وهو اختصاصه العلمي والمهني الدقيق .

٢/٢/١ حقل الدراسات الأدبية :

طبيعي أن يأتي حقل الدراسات الأدبية ، ولاسيما تحليل النصوص الشعرية ،

في منزلة متقدمة في قياس منجز الدكتور محمد أبوموسى ؛ ذلك أن محل البلاغة هو الكشف عن أسرار النصوص ، وفحص إمكاناتها التعبيرية .

وقد كتب الدكتور محمد أبوموسى في هذا الحقل الكتب (د ، ط ، ن) ، وانشغل بصورة أساسية بفحص (منازع الشعراء) أو طرائقهم في صناعة القصدية والتهدِّي لمنهج فهم الشعر وتفسيره بقراءة الشعر نفسه وتحليله .

٣/٢/١ حقل الدراسات التراثية :

في كثير من كتب منجز الدكتور محمد أبوموسى عناية ظاهرة ببحوث حقل الدراسات التراثية ، فهو حفي بكثير من المسائل التي تنتمي إلى هذا الحقل من مثل ما يلي :

أولاً : مسائل فيلولوجية ، تُعْنى بتأصيل تاريخ بعض الآراء ، وبيان نسبتها إلى أصحابها .

وهو في ذلك كله باحث عن خطة عمل العقل العربي وراء هذه المباحث المتنوعة .

ثانيًا : دراسة المصادر التأسيسية في مجال علم البلاغة ، كما يظهر من عنايته بكتابي عبد القاهر في كتابه عنهما : المدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني .

ثالثًا : دراسات تقريب بعض النصوص التراثية ، ككتابه في تقريب منهاج البلغاء لحازم القرطاجني .

وقضية تقريب بعض نصوص التراث قضية تعكس وعيًا بحق المعاصرين من المستعملين في تيسير العلم من جانب المختصين .

رابعًا : قراءته التراث ، وأشكال استلهامه المعاصرة ، كما يظهر من كتابه عن القوس العذراء لـ(محمود شاكر) وقراءة التراث .

خامسًا : بيان كثير من المشكلات والمعوقات التي تعرض لها التراث العربي في العصر الحديث بسبب ما سماه تبعًا لمحمود شاكر : فساد الحياة الأدبية .

٤/٢/١ حقل الدراسات الحضارية :

قد يصح أن يحكم على جميع مؤلفات الدكتور محمد أبوموسى أنها تنتمي إلى حقل الدراسات الحضارية ؛ ذلك أنه معنيٌّ جدًّا بقضية استعادة العقل المسلم المعاصر نفسَه بعد أن شردت به طرق الحياة ، وتعرض للتدويخ المستمر .

إنك واجدٌ في هذا المنجز إلحاحًا على بيان طبيعة منهج الأمة ، كيف كان علماؤها يتأتون للعلم ، وأنت واجدٌ منه دعوة دائمة إلى ضرورة الاجتهاد ، وأنت واجدٌ منه حرصًا بالغًا على مقاومة أوجه التقريب والتبعية .

وقد حفزني إلى هذا البحث نوع وعي ظاهر في كتاب الدكتور محمد أبوموسى عن منزلة اللغة في الحياة ، يقول في كتابه : مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني (ط. أولى ، ص ٣٥) : إن النشاط الفكري في الأمة هو ابن اللغة . هو من اللغة ، ومن ثَمَّ كان توجيهي لفحص سهمة هذه اللغة في تأسيس المنجز العلمي لديه ، وبنائه .

(٢) إسهام اللغة في المنجز العلمي للدكتور محمد أبوموسى : قراءة في خطاب المستويات :

يكشف فحص سهمة اللغة في المنجز العلمي للدكتور محمد أبوموسى وتحليلها عن حضور ذي خصائص وسمات ظاهرة للمستويات اللغوية المختلفة ، وهو حضور يمكن رصد سماته في المحددات التالية :

أولاً : حضور - مركزي محوري ، يرتقي ليكون بمثابة الغاية في كثير من الأحيان ، يعلن عن أنه مؤسس في الكشف عن قضية سمت الكلام .

ثانيًا : حضور كثيف جدًّا في التنظير ، والتحليل الذي يستهدف الكشف عن الأسرار البيانية والتركيبية .

ثالثًا : حضور متنوع التجليات والتطبيقات ، يقبض على مستويات اللغة المتنوع من الصوت إلى التركيب ، مرورًا بغيرها من المستويات الأخرى .

رابعًا : حضور متنوع الوظائف والغايات والمقاصد ، فهو حضور تأسيسي لما يروم الكشف عنه من علم وظواهر ومعان ، وحضور داعم يدعم الرؤى ويثبتها ، ويطمئن المتلقي إلى الجهد التحليلي كذلك .

وفيما يلي محاولة تستهدف الكشف عن مجمل حضور المستويات اللغوية في المنجز العلمي المتنوع للدكتور محمد أبوموسى :

١/٢ المستوى الصوتي :

لاذت تحليلات الدكتور محمد أبوموسى في عدد من المواضع من منجزه إلى المعلومات المنتمية إلى المستوى الصوتي ، واتخذت منها سبيلاً لدعم التحليلات التي تستهدف الكشف عن المعاني والدلالات والأسرار البلاغية .

وتوزعت غالب معلومات هذا المستوى الصوتي على ثلاثة مجالات ظاهرة هي :

أولاً : معلومات المخارج والسمات الخاصة بعدد من الأصوات عند الاحتياج إلى ذلك في تحليل المعنى ، مع ظهور الوعي بطبيعة أنواع الأصوات العربية من صوامت وصوائت وأثر ذلك في تشكيل المعاني ، وبيان التصوير .

ثانيًا : معلومات التحولات الصوتية ، أو ما يسمى عنده في بعض المواضع : بمعلومات « القلب الصوتي » .

ثالثًا : معلومات طلب الدلالات الصوتية ، وهو باب عزيز تزل في طلبه كثير من الأقدام ، وترتكب بسببه الكثير من الشطحات والتهويمات الدلالية .

ومن أمثلة توظيف المعلومات الصوتية طلبًا للكشف عن الأسرار التركيبية والبيانية ما يلي :

أ- يقول في التحليل الصوتي الذي أصاب الواو في كلمة « فو » وقلبها « ميمًا » فصارت « فمًا » (ص ٥٦ من كتابه : من أسرار التعبير القرآني ، ط.الثانية) : والفم أصله فوه ، حذفت الهاء ... وبقيت الواو طرفًا متحركة .... فأُبْدِل مكانها حرف مشاكل لها ، وهو الميم ؛ لأنهما شفهيتان . قالوا في التعليل الصوتي لهذا القلب : وفي الميم هوى في الفم ؛ يضارع امتداد الواو ، وكأنهم ناسبوا بين الميم والواو .

ويتضح من هذا النص مجموعة أمور هي :

أولاً : الوعي بمخرج الواو والميم « هما شفهيتان» وهذا صحيح .

ثانيًا : الوعي بحقيقة التحولات الصوتية وأثرها في نمو المعجم العربي ، فعن طريقه ـ هنا ـ نشأت المفردة (فم) بجوار المفردة (فو) .

ثالثًا : الوعي بوجود مبحث جليل صعب يختص بفحص الدلالات الصوتية ، ومحاولة استثمار معلومات المخارج ، ومعلومات الصفات في التهدِّي لدلالات صوتية تدعم الدلالات المعجمية والسياقية .

ب ـ ولم تقف حدود استثمار معلومات المستوى الصوتي عند محاولات الدكتور محمد أبوموسى استكناه أسرار البيان القرآني ، وإنما تجاوزت إلى بقية النماذج التي تنتمي إلى غير القرآن الكريم من الجناس القول ، يقول في نموذج دال على استثمار وتوظيف معلومات المستوى الصوتي في تحليل النص الشعري (ص ٢٠١ من كتاب : قراءة في الأدب القديم ، ط. الثانية) تعليقًا على قول بيت الحادرة ، قطبة بن محصن ، وهو شاعر جاهلي مقل :

لَعِبَ السُّيولُ بِهِ فَأَصْبَحَ مَاؤهُ غَلَلا تَقَطَّعُ في أُصُولِ الخِرْوَعِ

وفي هذا التصوير مزيد لحركة الحياة التي أجراها الحادرة في هذه الصورة الفذة .

السيول لاعبة بهذا المقر تداعبه مداعبة نشطة . . . وكلمة (غللاً) في قوله : (فأصبح ماؤه غللاً) كأنها تصف حركة الماء ، وسرعة تدفقه في مجاري أصول الشجر ، بهذا التكرار لحرف اللام فيها ، وبهاتين الفتحتين المتكررتين في اللامين ، ولو تعمقنا قليلاً قلنا : إن صوت الغين المندفع من أقصى الحلق والذي يشعرك بمعنى التغلغل ويصف أيضًا بصوت جريانه حركة هذا الماء».

ويكشف هذا النموذج عن مجموعة من الأمور ، هي :

أولاً : اعتماد المعلومات الصوتية أساسًا في إنتاج المعنى المنسرب في البيت كله ، واعتمادها أساسًا في تحليل الصورة بعد إذ اعتمدها أساسًا في تشكيل الصورة الحركية في عجز البيت كما مَرَّ من بيانه وتحليله .

ثانيًا : تنوع المعلومات الصوتية ، وتوزُّعها على المجالات والحقول الفرعية التالية :

- استثمار معلومات مخرج الصوت ، كما نلاحظ في توظيف مخرج صوت الغين ، وهو صوت طبقي ، أو صوت من مخرج أقصى الحلق بتعبيره المستعار من الأدبيات الصوتية التراثية يستخرج من ذلك معنى العمق والتغلغل .
- استثمار معلومات صفة الصوت ، فالغين صوت رخو ، أو احتكاكي له جريان ، استعاره لدلالة جريان الماء الذي يحدث نوع تصويت واحتكاك بما يصادفه ويقابله في رحلة مسيرته .
- استثمار خصائص صوت الفتحة بما هي صوت علة أو حركة فتح منطلق لا يعوقه شيء في رحلة إنتاجه .

صحيح أن ثمة ملاحظ على بعض المعلومات الصوتية في هذا النموذج التحليلي ، من مثل :

- استعمال مصطلح الحرف بديلاً لمصطلح الصوت ، وهو استعمال تراثي لكنه في العصر الحديث صار مستعملاً في علم اللغة الكتابي ، لا في علم الأصوات .
- استعمال التعبير عن موقع حركة الفتحة بقوله : «بهاتين الفتحتين المتكررتين في اللامين» وهما ليستا في اللامين ، وإنما الثابت أن مواضعهما بعدهما ، أي : إن الفتحة واقعة بعد كل لام منهما .

صحيح أن استثمار المعلومات الصوتية في بعض منه انطباعي ذوقي ، لكن هذه المعلومات الصوتية كانت حاضرة حضوراً مؤثراً ومنتجًا في كثير من تحليل النصوص المتنوعة في منجز الدكتور محمد أبوموسى ، وأسهمت بصورة واضحة جدًّا في كثير من المناطق التحليلية في إنتاج المعنى ، وفي الإمتاع بما استخرجه من الدلالات ، وفي الكشف عن عبقرية التشكيلات اللغوية ، من جانب ، وعبقرية العربية ، بما يشتمل عليه نظامها الصوتي ـ الصرفي من إمكانات هائلة .

إن بالإمكان للمختص في دراسة الصوتيات أن يقف متحفظًا بعض الشيء أمام بعض التحليلات التي تستهدف إنتاج المعاني والدلالات اعتمادًا على استثمار معلومات المستوى الصوتي ـ لكنه لا يسعه إلا أن يعترف لمنجز الدكتور محمد أبوموسى بعدد من الموائز المهمة في طريق هذا التوظيف هي :

أولاً : الوعي التام بطبيعة معلومات المستوى الصوتي الموزعة على مخارج الأصوات ، وأقسامها ، وصفاتها ، والتحولات التي تصيب قطاعًا منها ، في نسختها التراثية الأصيلة التي أنجزها العلماء العرب المسلمون في مجال الدرس الصوتي والتجويدي .

ثانيًا : الوعي بوجود دلالات صوتية حقيقية ، يسهم في إثباتها جماع النظر إلى المخرج والصفات والتركيب في المفردة الواحدة .

ثالثًا : الوعي بأثر هذه المعلومات الصوتية على مستويات متعددة هي :

- تشكيل الصورة الفنية ، وخدمتها .
- بناء المعاني والدلالات ، وتعميقها .
- بناء الأغراض الكلية ، وخدمتها .
- دعم الوحدة الموضوعية للنص ، والإسهام الجزئي في تحققها .
- الكشف عن حركة المعنى في النفس والعقل في النصوص الإبداعية البشرية .
- التعويل كثيرًا على النسق الصوتي العام في النصوص ، لاسيما القرآنية ، وهو المعروف تدعيمًا بالتلاؤم ، «غالبًا : الصوتي من حيث هو نغم صرفي» وجه من وجوه الإعجاز .

٢/٢ المستوى الصرفي :

يمثل حضور معلومات المستوى الصرفي في منجز الدكتور محمد أبوموسى ركنًا أصيلاً بما تعنيه الكلمة ، وهو حضور ظاهر جدًّا ، وكثيف جدًّا ، ومركزي جدًّا ، ويمثل ذلك الحضور كذلك الخطوة التأسيسية الأولى في بناء المنجز التحليلي الذي يروم الكشف عن أسرار البيان في النصوص القرآنية ، والحديثية ، والشعرية جميعًا وبامتياز .

وتوظيف المعلومات المنتمية للمستوى الصرفي كاشف عن مجموعة من العلامات الحاكمة على هذا الاستثمار ، ويمكن إجمالها في ما يلي :

أولاً : العناية في كثير من مواضع التحليل للنصوص بمعلومات أوزان الصيغ ؛ توصلاً لتوكيد تحصيل نطقها الصحيح في نصوصها .

ثانيًا : العناية كذلك بمعلومات معاني الصيغ أو الأبنية ، وهو ملمح فريد يمنح العربية نوعًا من الفضل ، تفضل به عن غيرها في ميزان تفاضل اللغات بعيدا عن الكفاءة التواصلية التي تحسنها كل لغة ، ثم هي تتفاضل فيما بعدها من الكفاءات ، لاسيما الشعرية والإبداعية .

ثالثًا : العناية بمعلومات الاشتقاق والتصريف ، وهو نوع وعي جليل بارتباط الأبنية الصرفية بجرثومة معنى يلحق بها مع تنوعها واشتقاقاتها ، ولا يفارقها ، ثم تأتيها المعاني الجديدة من جهات أخرى بعضها متعلق بنوع المشتق ، أو نوع البنية الصرفية المتشكلة من هذا الأصل الحاصل لجرثومة المعنى .

رابعًا : العناية في كثير من الأحيان باستعمال طريقة الضبط بالمثال الصرفي ، إن باستعمال كلمة شهيرة ، وإن باستعمال وزن صرفي .

صحيح أن معلومات الضبط شيء متمايز من المعلومات الصرفية لكن حضور المستوى الصرفي تجاوز فطال بتقنياته مستوى الضبط والتشكيل فاستعمل طرقًا وافدة عليه من أروقة التصريف العربي .

وفيما يلي نماذج تطبيقية كاشفة عن سهمة التصريف العربي في تأسيس المنجز العلمي التحليلي للدكتور محمد أبوموسى :

أ- يقول في تحليل قول أوس في وصف القوس (ص ٤٩٥ من كتابه : الشعر الجاهلي : دراسة في منازع الشعراء ، ط . أولى) :

وَمَبْضُوعَةً مِنْ رَأْسِ فَرْعٍ شَظِيَّةً بِطَوْدٍ تَرَاهُ بِالسَّحَابِ مُجَلَّلا

المبضوعة : المراد بها القوس ، وهي اسم مفعول من بضيع اللحم : إذا قطعه والمبضوعة : المقطوعة .

ففي هذا المثال تظهر العناية ببعض معلومات المستوى التصريفي ، وهي :

أولاً : بيان فرع الصيغة الصرفية ، وأنها اسم مفعول ؛ تذرعًا لبيان دلالة هذا البناء أيًّا ما كانت الحروف التي تشغله ، فهو ذاك الاسم الدال على معنى فعله المبنى للمجهول مع الدلالة على معنى جديد طارئ من أجله اشتق ، هو الدلالة على الشيء المفعول ، هو القوس هنا .

ثانيًا : بيان المعنى في الأصل الذي انحدر منه المشتق وأخذه وهو قطع اللحم : أو القطع بإطلاق .

ثالثًا : التوصل من خلال بيان معلومات نوع الصيغة الصرفية ووزنها ، وأصلها الذي اشتقت منه ، لدعم تفسيره لمعانيها في النص من حيث هي :

- القوس المقطوعة التي بذل من أجل صناعتها وقطعها صاحبها الجهد ، وتكبد من أجل ذلك نوع معاناة ، وتكلف نوع صبر .
- يقول : «لقد اختار كلمة (مبضوعة) المشيرة إلى بداية صناعة القوس ، وأن رأس الحديث عنها هو مجهود الإنسان ، وصنعة الإنسان» ، وهو ما يفرضه التحليل الصرفي للصيغة الصرفية التي تفترض وجود فاعل ، لأنها دالة على شيء مفعول ، فما استثمار المعلومات الصرفية وتوظيفها تأسيسًا لاستخراج هذا المعنى .
- يقول الدكتور محمد أبوموسى في مفتتح تحليل قوله تعالى من سورة الأحزاب : ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ (الأحزاب:١٩) : «أشحة : جمع شحيح . يقال : رجل شحيح ، وقوم أشحة ، وسُمع : أشحاء ، كأضناء وأخلاء ، وهو قياس ، لأن فعيل إذا كان وصفه مضعف العين واللام جمع : أفعلاء . ولهذا جاء على غير القياس الصرفي» .

ففي هذا المفتتح الذي أخلصه الرجل للتصريف كاملاً يتضح ما يلي :

أولاً : بيان واقع الصيغة الجمعية التي وردت عليها الكلمة في استعمال الآية ، وهو ما اقتضى استعمال المفتاح التحليلي (جمع) وبيان المفرد منه .

ثانيًا : تفريع القول التصريفي في قياس الجمع من وزن فعيل ، وشرحه بيان القاعدة الصرفية .

ثالثًا : بيان خروج الجمع في صيغة الاستعمال القرآني عن مقتضى القياس الصرفي .

وقد كان ذلك كله مدخلاً أورده في صور التحليل البياني للآيات الكريمة ، كما جاء في كتابه : من أسرار التعبير القرآني : دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ، (ط . الثانية ، ص ١٣٢) .

وفحص سهمة التصريف العربي في منجز الدكتور محمد أبوموسى يكشف عن مجموعة من السمات الظاهرة في استثمارها وتوظيفها ، يمكن الدلالة على أظهرها فيما يلي :

أولاً : الوفاء للحدود المعرفية لمباحث التصريف العربي التي تتسع للحديث عن الوزن الصرفي ، والاشتقاق ، والتحولات التي تصيب الأبنية عند هذا الاشتقاق ، ومعاني الأبنية ، وتحليل ميلاد الصيغ ، وأصول ذلك ، وبيان القياس ، وما يخرج عن القياس ؛ الخ .

ثانيًا : اطراد ظهور التوظيف للمعلومات الصرفية في كثير من أدبيات المنجز المعرفي للدكتور محمد أبوموسى ، وإن اختلف مكان ذلك الظهور على شكلين هما :

أ- في صور التحليل ، ومفتتح الكلام على تركيب أو قطعة من النص مشغلة التحليل البياني ، كما نرى على ذلك مثلاً في كتابه من أسرار التعبير القرآني : دراسة تحليلية لسورة الأحزاب .

ب ـ في بيان التلبس بتحليل القطعة من الكلام ، والكشف عن أسرارها البيانية . هذا هو الغالب على أدبيات المنجز العلمي التحليلي للرجل .

وثمة فارق بين المنحيين ؛ فالأول ينهض التصريف فيه بعبء التأسيس لاستخراج مخبّآت المعاني ، والتهدّي للكشف عن أسرار التعابير من النصوص ، والأخير ينهض التصريف فيه بعبء الدعم ، والتعليل لما كان ، مما استخرجه التحليل البياني من المعاني والدلالات والأسرار .

ثالثًا : ظاهر جدًّا الوعي بأن التصريف من جملة علوم الآلة التي لا غنى عنها عند التهدي للتفسير واستخراج المعنى ، والكشف عن الأسرار البيانية وتحليلها .

رابعًا : الانطلاق من مرجعية تراثية تتقن أبواب التصريف ، وتستعمل جهازه الاصطلاحي .

خامسًا : غياب التوثيق للمعلومات والقواعد التصريفية ، والاعتماد على التحصيل السابق ، والملكة التكوينية الفذة التي تحصلت بمرور الوقت ، وعمق التجربة ، وتوافر الإنجاز التحليلي .

ذلك أمر يحتاج إلى نوع تنبيه في ظل تفشي التنكر للتوثيق وقيم الأمانة العلمية .

٣/٢ المستوى النحوي/ التركيبي :

يعد حضور معلومات المستوى النحوي/ التركيبي هو الأكثر ظهورًا وكثافة في منجز الدكتور محمد أبوموسى العلمي المتنوع ؛ وذلك لاعتبارات أساسية ، نركز القول فيها كما يلي :

أولا : طبيعة التصور العلمي لعلم البلاغة العربية بما هو النحو الزائد ، أو النحو العالي ، أو النحو الرشيد ، النحو الجمالي ؛ فالبلاغة العربية تجمع من القضايا العلمية المتراكبة التالية :

أ- قواعد النحو ، وأحكام تركيب الكلام ، وإسهام علامات الإعراب والموقعيات في إنتاج المعنى وإنجازه ، يقول في (خصائص التراكيب ،

ط. ٦ ، ص : ٣٥) : علم النحو قد درس هذه الأحوال ، أعني الحذف والذكر وغيرها ، ولكن دراسته لها تناولت جهة أخرى ، وهو ما يعني ما نقرره هنا .

ب ـ قواعد النظام غير التركيبية التي تعود إلى ما استقر من علاقة تعاقدية بين المنتج المرسل ، والمستقبل المستهلك للكلام من قواعد اتفاقية عرفية وأخلاقية تُعزِى تقدير كل طرف منهما لصاحبه .

جـ ـ القواعد التي استقرت وأحاطت بالأنماط التركيبية ، وما سكن أبنيتها الداخلية ، وتنويعاتها الفرعية ، وتراكم المستخرج من دلالات كل نمط أو جنس أو نوع .

د ـ ما استقر من أسرار النحو ، وفروق الأدوات ، وفروق الاستعمالات في الباب الواحد ، والأبواب المتعددة الأخرى .

كل ذلك جعل دور النحو أو التركيب وإسهامه في منجز الدكتور محمد أبوموسى مركزيًّا بصورة ظاهرة جدًّا للدرجة التي يمكن أن نقرر فيها بسبب من طبيعة تصورنا لحدود حقل البلاغة المعرفي ـ أن منجز الرجل يقع في صميم من حقل الدرس النحوي أو التركيبي بامتياز .

ثانيًا : طبيعة التصور العلمي لعمليات إنتاج المعنى ، فالتركيب هو الذي ينهض بذلك على تقدير سهمة الأبنية الصرفية بطبيعة الحال ، لكن النحو هو معقد إنتاج المعاني ، وتشكيل الفكرة والنهوض بها ، وحملها إلى جمهورها ، ومستعملها بحيث لا يتصور وجود فكر قبل التركيب ، ولا وجود معنى عام ، ولا معنى جزئي منضوٍ تحته المعنى العام قبل انتظام الكلام نحويًّا أو تركيبيًّا بموجب قواعد التضام وقواعد المعقولية معًا .

ومن أجل ذلك ظهرت عناية شديدة بمعلومات المستوى النحوي في محاور منجز الدكتور محمد أبوموسى التي يمكن توزعها على ما يلي :

أولاً : المحوري التأسيسي التنظيري ، وهو ما شهد خدمته بصورة صريحة بكتابه (ب) أو خصائص التراكيب ، وكتابه (هـ) أو دلالات التراكيب .

ثانيًا : المحوري التحليلي الذي يتغيَّا الكشف عن الخصائص والأسرار البيانية ، وهو ما تجلت خدمته بصورة متشعبة جدًّا في منجزه على ما نرى في كتبه : (أ/ ك/ ن/ س/ ع/ ف) أو كتبه :

- من أسرار التعبير القرآني .
- شرح أحاديث من صحيح البخاري : دراسة في سمت الكلام الأول .
- الشعر الجاهلي : دراسة في منازع الشعراء .
- آل حم ، غافر ـ فصلت : دراسة في أسرار البيان .
- الزمر ـ محمد وعلاقتهما بآل حم : دراسة في أسرار البيان .
- شرح أحاديث من صحيح مسلم : دراسة في سمت الكلام الأول .

وذلك على الولاء والترتيب .

وقد تركزت صور استثمار معلومات المستوى النحوي أو التركيبي في خدمة المنجز العلمي للدكتور محمد أبوموسى فيما يلي :

أولاً : العناية بمعلومات الإعراب للقطعة من النص مشغلة التحليل .

ثانيًا : العناية بوظائف الكلمة النحوية المتنوعة ، وأعني بها :

أ- الوظيفة النحوية الإعرابية .

ب ـ الوظيفة النحوية الموقعية .

جـ ـ الوظيفة الدلالية .

ثالثًا : العناية بمعلومات المستوى النحوي المتعلقة بأسرار التراكيب ، وفروق الأدوات ، وفروق الأساليب ، وفروق الموقعيات ، وغير ذلك مما شاع في التراث النحوي الذي أخلص في خدمته نحاة العرب المسلمين .

ومن النماذج التحليلية التطبيقية الكاشفة عن ذلك ما يلي :

أ- يقول في تحليل بيتي الأعشى في وصف ظبية (دراسة في البلاغة والشعر ، ط . أولى ، ص ١٩٠) .

ظَبيَةٌ مِنْ ظِباءِ وَجْرَةَ أُدْمَا ءُ تَسَفُّ الكَبَاثَ تَحْتَ الهَدَالِ

حُرَّةٌ طَفْلَةُ الأَنَامِلِ تَرْتَبُّ سُخَامًا تَكُفُّهُ بِخِلاَلِ

وفيه تقارب ظاهرة في البناء اللغوي ؛ فقد بُنِيَ كل منهما على تعدد أوصاف ، هي في الأول : « أدماء . . تسف الكباث تحت الهدال »، وفي الثاني : « طفلة . . ترتب سخاما تكفه بخلال ».

تأمل الفعل المضارع في البيتين ، وهو جملة واقعة موقع الوصف ، الأولى : « تسف الكباث »، وهي صفة لـ« أدماء » والثانية : « تكفه بخلال » جملة حالية . وقد أذن موقع المضارع في البيتين بضرب من التوازن في نسق الكلام ، وتشابه في التركيب . . .

اقرأ البيتين قراءة من يفكر في صنعة الشعر الذي يقرؤه ثم تأمل المعنى الذي يجري فيه البيتان ، وهو معنى واحد ، يصف حسنًا ، وملاحة ، ونعومة ، وطفولة ، ونعمة ، وثراء ، ووفرًا ، والظبية فيها ملاحة العينين والجيد ».

ويتضح من التعليق والتحليل على هذين البيتين قيامهما على أساس من بنية استثمار النحو في صورة الإعراب ، ومداره على التنويع العبقري بين أمرين متداخلين ، متقاربين ، متفارقين ، هما :

أولاً : النعت ، بما يسكنه من لزوم يرقى بما كان من صفات الجمال في الظبية ، بما رصده لها نعوتًا .

ثانيًا : الحال بما يحققه من جمال يحل في أوقات من حركة الظبية ، فتزداد جمالاً يلحقها في بعض أحوالها ، يضاف إلى جمال حال مستقر لا يفارقها .

والدكتور محمد أبوموسى يقترب من النحو والإعراب بقدر ما يمنح تعليله المحدودات اللازمة للقارئ ، وهي المحددات التالية :

١- البيان «الكشف» والتفسير للنصوص .

٢- الإقناع والتدليل على صدق البيان والكشف والتفسير .

٣- الحدب على المتلقي ، والشفقة به ، وتقديره التقدير اللائق بعقله ووجدانه معًا .

٤- الوفاء لأظهر ما يقول به النص ، وهو اللغة ، والوفاء لأظهر ما يعلن عن عبقرية اللغة ، وهو التراكيب .

ب ـ يقول في تحليل قول النبي ﷺ : في كتابه (شرح أحاديث من صحيح البخاري : دراسة في سمت الكلام الأول ، ط . أولى ، ص ٢٧٦) : «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ـ ولا يقبل الله إلا الطيب ـ فإن الله يتقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوّه حتى تكون مثل الجبل».

«هذا الحديث من الكلام العالي وهو جملة واحدة أولها : اسم الموصول (مَنْ) وصلته : (تصدَّق) والجار والمجرور المتعلق بالصلة (بعدل تمرة) وشبه الجملة التي هي صفة للتمرة (من كسب طيب) والجملة المعترضة التي لا محل لها من الإعراب (ولا يقبل الله إلا الطيب) ثم الخبر (فإن الله يتقبلها بيمينه) ثم المعطوف عليه (ويربيها لصاحبه) ثم التشبيه الذي يشرح هذه التربية وبين مدى العناية بهذه الصدقة (كما يربي أحدكم فلوّه)» .

ويتضح من هذا المفتتح وجه العناية بمعلومات المستوى النحوي والتركيبي ، حيث أعرب الحديث كاملاً ، ويتضح منه وجه اعتباره تأسيسًا للتحليل .

والمدهش حقيقة هو ظهور سهمة النحو والتضام وتركيب الكلام في صناعة التماسك لنص الحديث ، يقول محمد أبوموسى : «الحديث كله نَفَسٌ واحد ،

وجملة واحدة . . وهذه الحقيقة المتماسكة دخل في تكوينها سبع جمل صغار تلاحمت وتماسكت وصار جملة واحدة» .

وفحص استثمار معلومات المستوى التركيبي كاشف عن مجموعة من العلامات والمحددات الحاكمة في توظيف منجز محمد أبوموسى كما يستعمله في هذا المثال كما يلي :

أولاً : احتلال معلومات المستوى التركيبي منزلة تأسيسية في بناء التحليل اعتمادا عليها .

ثانيًا : احتلال معلومات المستوى التركيبي متصدرًا ، وهو فرع عن العلامة السابقة في (أولاً) ؛ ذلك أن تصدر الكلام من معلومات الإعراب والتركيب لازم لابتناء بقية التحليل المختص بفحص الدلالة والكشف عن المعاني عليه .

ثالثًا : ربط معلومات المستوى النحوي بالدلالة ، وهو ما نجده في مفتتح استثمار موقعية الجملة المعترضة بقوله (ص ٢٧٨) : «(ولا يقبل الله إلا الطيب) جملة معترضة . والجملة المعترضة فيها معنى حرص الكلام على إبراز وبيان ما تدل عليه هذه الجملة» .

وهو معنى اعتقادي متعلق بمقام توحيد الله ـ سبحانه ـ وبما يليق به ، ويرعى تنزيهه ـ تعالى .

وهو بعض ما يحملنا على أن نقرر أن جزءًا من الفلسفة الحاكمة في بناء تراكيب نصوص الوحي بفرعيه الكتاب والسنة كامن في رعاية مقامات التوحيد والتنزيه لله ـ تعالى .

ومن مجموع تأمل علامات استثمار المستوى النحوي أو التركيبي في منجز الدكتور أبوموسى العلمي بفرعيه النظري والتأسيسي ، أو التطبيقي والتحليلي ، يظهر أنه أعلى المستويات اللغوية حضورًا واستثمارًا واعتمادًا في هذين الفرعين اللذين هما جماع منجزه .

٢/٤ المستوى الدلالي :

يمثل ظهور معلومات المستوى الدلالي رقمًا بالغ الأهمية في منجز الرجل ، من عدة جوانب ، يمكن رصدها فيما يلي :

أولاً : تظهر الدلالة غاية جهد الرجل ؛ فهو يقف حياته ، وجهده ، ومنجزه لأجل الكشف عن أسرار التعبير ، أو الأسرار البيانية ، أو استخراج خبيء النصوص العوالي من الكلام الشريف والعالي مما كان مشغلته في التحليل والدراسة ، في القرآن الكريم ، والسنة الصحيحة ، في أصح مصدريها تعيينًا : البخاري ومسلم ، وفي نصوص الشعر الجاهلي من جانب أو لأجل تأسيس قواعد العلم البلاغي بفروعه الثلاثة المشتهرة ، وبغيرها مما يروم ضمها لهذه العلوم الثلاثة مما يسميه علم تحليل المعاني والدلالات .

ثانيًا : يظهر من تتبع تحليلاته حفايته البالغة بتقدير الفروق اللغوية ، وهو بعض نتائج تقدير لعمل العقل العربي نحو لغته في أزمنة الحضارة والعافية .

ومن ثَمَّ يظهر أن العلاقة الدلالية الطبيعية التي تفترض أن لكُلِّ دالٍّ مدلولاً خاصًّا به ، مغلقًا عليه ، وتكاد تكون هي العلاقة الأثيرة المقدمة بفعل هذا التقدير .

ثالثًا : يظهر كذلك نوع تقدير بالغ للدلالات السياقية ، والعكوف على تأمل قرائن السوابق وقرائن اللواحق ، وهي أدوات في يد محلل النصوص لاستخراج الدلالات بتفعيل آلية تشغيل سياق لغوي موسع يتمثل في اعتبار النصوص العربية العالية سياقًا لغويًّا يمنح المحلل طاقات وقدرات على تفهم نص ضيق معلق في سورة أو حديث أو قصيدة .

رابعًا : يظهر كذلك من تحليل منجزه التحليلي عنايته بالسياقات المعرفية والخارجية وتحكيمها في استخراج المعاني ، ولاسيما عندما يتعلق التحليل بالأبعاد الاعتقادية والتوحيدية .

٢/ إسهام اللغة في منجز الدكتور محمد أبوموسى : مقالة في العناية بتماسك النصوص

يظهر في كثير من أدبيات منجز الدكتور محمد أبوموسى الموجهة لتحليل النصوص والكشف عن أسرارها التعبيرية أو البيانية وجه عناية باللغة بتقرير تماسك النصوص ، وترابطها ، وتلاحم أجزائها .

وهذه الوجوه من العناية ظاهرة في العلامات التالية :

أولاً : النص على حقيقة ترابط النصوص وتماسكها .

ثانيًا : بيان سهمة التراكيب (النحو) في صناعة هذا التماسك والتلاحم عند التحليل التطبيقي لكثير جدًّا من النصوص .

ثالثًا : الفرار إلى استثمار بحوث المناسبة بين الأبيات ، والمناسبة بين السور ، والعلاقات القائمة بينها لدعم انصرافه أمام القول بترابطها وتماسكها .

رابعا : الفرار إلى استثمار بعض التقييمات البلاغية عمومًا والبديعية بوجه خاص لدعم الكشف عن ترابط النصوص .

خامسا : اعتماد قانون «المعنى الأم» مبدأ حاكمًا عند تحليل النصوص القرآنية من وحدات السور الكريمة ، واعتماده أساسًا عند التفسير والكشف عن أسرار البيان .

سادسًا : تحكيم صوانع الربط والتماسك الدلالية ، كالتعليل ، والتفسير ، والترتيب العقلي ، وغيرها عند بيان ما به قيام الترابط بين الوحدات الجزئية المكونة للنص .

إنني أستطيع أن أقرر ـ مطمئنًا ـ أن منجز الدكتور محمد أبوموسى كاشف عن إدراك ظاهر لكثير من مباحث التماسك النصي بفرعيه اللفظي والدلالي ، أو السبك والحبك ، وهو الإدراك الذي يتجاوز حدود الشعر المبهم والساذج إلى ظهور حقيقته ، وظهور أدواته ، وبيان آثاره .

وفحص تحليلات الرجل للنصوص كاشف عن ظهور بيِّن لما به تحقيق سبك النصوص ، وما به تحقق الحبك فيها .

والتوقف أمام الكشف عن الترابط والتلاحم بين أجزاء النصوص والتوقف أمام الإجراءات والوسائل المحققة لذلك ظاهر ، والمؤشرات الكاشفة عنه فاشية في مستوى التنظير والتحليل معًا ، لكنه إدراكًا من منظور تراثي صرفي لم يقترب فيه من حدود ما يعرف في اللسانيات المعاصر باسم : علم لغة النص ، أو اللسانيات النصية ، أو تحليل الخطاب .

٥/ إسهام اللغة في منجز الدكتور محمد أبوموسى العلمي : مقالة في بيان مؤشرات الوعي :

لم يكن ظهور سهمة المستويات اللغوية في منجز الدكتور محمد أبوموسى العلمي مقصورًا على حدود التطبيق والاستثمار فحسب ، ولكنه كان ظهورًا مؤسسا على وعي تأسيسي معرفي يدرك قيمة موقع اللغة على خريطة بناء الأفكار .

وفيما يلي مجموعة من النصوص ألتقطها من بعض أدبيات منجزه تكشف عما أقرره :

أ- «والخلاصة أن الشيات النفسية والروحية التي تمتاز بها الأمة مفرغة في أحوالها اللغوية» (الإعجاز البلاغي ، ط . الثانية ، ص٤)

ب - وينبغي أن أشير إلى ما منحه القرآن لهذا اللسان مما يشبه الثبات من حيث النظام الصرفي والنحوي ودلالات التراكيب» (مدخل إلى الإعجاز البلاغي ص ١١) .

جـ - «لا نرى وجهًا لما يذكره بعض كتابنا في وقع فضل العربية على اللغات قاطبة» . (ص ١٥)

د ـ «النشاط الفكري في الأمة هو ابن اللغة ، وهو من اللغة» (مدخل إلى كتابي عبد القاهر ، ط . أولى ، ص ٥٣) .

هـ ـ إن الاقتراب من النص والبيان عنه «هو الأصل الذي من أجله كانت الجهود النحوية والصرفية وغيرها من العلوم اللغوية واللسانية» (من أسرار التعبير القرآني ، ط . الثانية ، ص ٣٦) .

فهذه خمسة نصوص ألتقطها لتكشف عن الوعي التأسيسي في هذا المنجز المعرفي بمركزية موقع اللغة في إنتاج الأفكار ، وفي تعيين الأثر الخلّاق للارتباط بالوحي في تطوير دراسة اللسان ، وفي البيان عن منزلة الكشف عن أسرار البيان في النصوص ، وأنه هو أصل العمل والفحص .

خاتمة

اجتهدت هذه الورقة في فحص سهمة اللغة بمستوياتها المختلفة في بناء المنجز العلمي للدكتور محمد أبوموسى بفرعيه النظري والتأسيسي ، والعملي والتحليلي ، وكشف هذا الفحص عن حزمة من النتائج هي :

أولاً : ظهور الوعي التأسيسي بمنزلة اللغة في صناعة الأفكار .

ثانيًا : ظهور الاعتماد على معلومات المستوى الصوتي ، والصرفي ، والتركيبي ، والدلالي ، في تحليل النصوص المختلفة .

ثالثًا : التنبه لمحورية ترابط النصوص ، وتماسكها ، وتلاحم أجزائها ، والتنبه لرعاية ذلك عن الممارسة التحليلية للنصوص ، والإعلان عن سهمة النحو والإجراءات العقلية في صناعته معًا .

رابعًا : تراجع مؤشرات التوثيق بصورة دقيقة تيسر للقارئ مراجعة المصادر عند الضرورة .

خامسًا : الوفاء العجيب للمنجز القرآني في توظيف معلومات المستويات اللغوية : صوتيًا ، وصرفيًا ، وتركيبيًا ، ودلاليًا ، على مستويات طريقة التحليل الإعرابي ، وعلى مستويات استعمال الجهاز الاصطلاحي .